السراب: ما يُلتمس الماء فيستغيث به من عطشه فلم يجد السراب شيئا. فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، ويحسبون أنهم منجيتهم عند الله غدا جهلا كما حسب الظمآن الذي رأى السراب فظنه ماء يرويه من ظمئه حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله لم يجده ينفعه شيئا، لأنه كان عمله على كفر بالله (١) ولم يجد له شيئا بالكلية قد قبل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع (٢)

ووجد الله عنده فوفاه حسابه: ووجد الله هذا الكافر عند مجيئه إليه فوفاه يوم القيامة حسابه أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليها جزاء (٣)

قال ابن عباس: هو مثل ضربه الله لرجل عطشان خاشت عطشه فرأى سرابا فحسبه ماء فطلبه وظن أنه قد رعليه حتى أتاه، فلما أتاه لم يجده شيئا وقبض عند ذلك. يقول: الكافر كذلك يحسب أن عمله مغن عنه أو نافعه شيئا. ولا يكون آيسا على شيء حتى يأتيه الموت. فإذا أتاه الموت لم يجد عمله أغنى عنه شيئا.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٤

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٦

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١١٥

ولم ينفعه إذ لا يكاد ينفع الخطشان المشتد إلى السراب (١)
وهذا المثال للكفار الذاهبة إلى كفرهم (٢) وهذا المثال
مثال لذوي الجهل المركب (٣)
ونحن نود أن نسير مع هذا المثل خطوة فخطوة.
إن الذين كفروا بالله تعالى، وأصروا على كفرهم،
ودعوا إليه، أعمالهم التي حسبوها صالحة ونافعة
لهم يوم القيامة، سوف يفاجأون حينما يتوفاهم الله
تعالى أن هذه الأعمال التي حسبوها صالحة ويثابون
عليها هي في حقيقتها بمنزلة السراب الذي يحسبه
الظمآن في الصحراء ماءً وليست بماء.
وإن هذه الأعمال، وإن كانت حسنة بمقياس
الإسلام، هي تفقد شرطي قبول الله تعالى تلك
الأعمال الحسنة.
إن الإسلام يقبل الأعمال إذا تحقق فيها
شرط الإخلاص لله تعالى، وشرط اتباع سنة محمد
صلى الله عليه وسلم. وإن أعمال الكافرين فقدت
شرط الإخلاص لله تعالى، فهي وإن كانت من الأعمال
الصالحة التي يدعو إليها الإسلام فإنها لم يُرَدْ بها الله تعالى،
لذلك فهي قد فقدت شرط الإخلاص. إن العمل الذي يتقبله
الله تعالى بقبوله هو العمل الذي تحقق فيه الشرطان معا.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٥
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٦
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٧٧

يشترط الإخلاص لله تعالى، ويشترط اتباع سنة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

إن هذين الشرطين يمكن استنتاجهما من كل من الأذان والإقامة.

إن شرط الإخلاص لله تعالى يُستنتج من قول المؤذن ومقيم الصلاة: أشهد أن لا إله إلا الله.

وإن يشترط اتباع سنة محمد صلى الله عليه وسلم يُستنتج من قول المؤذن ومقيم الصلاة: أشهد أن محمداً رسول الله.

وانظر إلى اختيار المثل لفظ "سراب" إن لفظ "سراب" غير لفظ: الآل، إن السراب يكون وقته من بعد زوال الشمس ظهراً حتى وقت العصر.

وميزة السراب أنه يخفي الشخوص، فيرى صغيراً حتى تختفي.

أما الآل فيكون وقته من الضحى حتى زوال الشمس. وميزة الآل أنه يظهر الأشياء حتى يصير كل شيء يشبه الجبال، وكل شخص أياً، أي شخصاً كبيراً، أكبر من حقيقته.

وقد تبين انسجام لفظ السراب، الذي يخفي الأشياء، والذي ليس له وجود في الحقيقة، انسجام اللفظ مع اختفاء ثواب أعمال الكافر التي يظنّ الكافر أنها أعمال صالحة يثاب عليها.

وهذا السراب ببيد، بقيعة، وهي جمع قاع. وهو ما انبسط من الأرض (١)

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١١٤

وليست صفات قاعٍ واحدٍ، ولا أرضٍ منبسطةٍ واحدة،
إنما صفات قيعانٍ وأراضٍ، لا أقول لها ولا آخر،
وهكذا يُشبِّهُ العطشان من الصحراء وراء السراب
الذي يظنه ماءً. وبذلك لا يكاد يغيب السراب،
ولا يكون صفات سوى الأوصاف.

إن هذا الكافر الذي ظن أن أعماله الصالحة في نظره،
إنما فقدت الشرطين، شرط الإخلاص وشرط الاتباع،
أو فقدت شرط الإخلاص لله تعالى، فهي حينئذٍ
الأعمال الصالحة التي ظنها بمثابة الماء الذي يُروِّيه
من الصحراء إذا عطش، واشتد عطشه وتبين
أن تلك الأعمال التي ظنها ماءً ينفعه لم تكن إلا
سرابًا. وبذلك هو لم يستفد سوى الظمأ
والعطش.

إن الظمآن من الصحراء الذي حسب في يده
الظهيرة أن السراب الذي رآه لم يكن ماءً، وإن
الكافر إذا ألقى الله تعالى الذي حسب أعماله الصالحة
نافعةً له يوم القيامة، يشتركان في ضياع الجهود،
وعدم الحصول على المقصود.

إن السراب يرى وراءه السراب لا يجد ماءً. وإن الكافر
الذي يرجو ثواب أعماله لم يجد شيئًا من الحسنات التي
ظن أنه ثابٌ عليها، فقد أحبط الله تعالى، وجعلها هباءً منثورًا.
ويلاحظ أن السراب الذي يبدو في الصحراء في هذه
النظيرة، من جنس الذي يبدو فيخدع بعيدٍ، مثل نار يرى
الغريب للكافر المعاند الذي يصر على كفره ويدعو إليه.

كما يلاحظ مجيء جملة: "جاء ههنا" آلتي تدل هنا على القرب المكاني والنفسي. فطالب الماء في الصحراء كلما جاء المكان الذي ظن فيه الماء لم يجد شيئاً من الماء. وإن الكافر الذي قام بالأعمال الحسنة ويظنها ستثاب عليها، إذا توفاه الله تعالى، وجاء العبد إلى ربه طامعاً في ثواب أعماله آلتي أحبطها الله تعالى، وجد الله تعالى الحكم العدل، فوفاه حسابه. والله سريع الحساب.

إن الأعمال القبيحة قد أبطلها الله تعالى وعدت بمثابة السراب، فلم تبق سوى الأعمال السيئة آلتي ستعاقب عليها: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾(1)

(1) سورة الكهف ٤٩

(٥) دلالة جملة: "يأتي" على البعد الزماني:

ونضرب المثال على هذا البعد الزماني بقوله تعالى في سورة الصف (١): هو وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين.

المعنى، والله تعالى أعلم، واذكر يا محمد إذ قال عيسى ابن مريم عليه السلام، آخر أنبياء بني إسرائيل، لقومه بني إسرائيل: يا بني إسرائيل إني رسول الله تعالى إليكم، مصدقا لما أنزل الله تعالى قبلي، على موسى عليه السلام، كبير بني إسرائيل، من التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. وهذا اسمه صلى الله عليه وسلم في السماء، واسمه صلى الله عليه وسلم في الأرض محمد.

فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالآيات البينات، والحجج الواضحات، وفي مقدمتها القرآن الكريم، كبرى معجزات محمد صلى الله عليه وسلم قالوا ما هذا القرآن الكريم إلا سحر بين واضح، ولهذا نحن نرفض هذا الدين الذي جاء به هذا السحر المبين.

---

(١) سورة الصف ٦

روى الإمام البخاري في صحيحه (١) عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لي خمسة أسماء. أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب.

والاسم محمد علم منقول من صفة الحمد، وهو بمعنى محمود، وفيه معنى المبالغة (٢)

والاسم أحمد علم منقول من صفة الحمد، وهي أفعل التفضيل، ومعناه أحمد الأنبياء، أي أكثرهم حمدا، أو أعظمهم في صفة الحمد (٣)

والاسم العاقب يعني الخاتم (٤)

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين وأشرف المرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

وليس بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام أي نبي. وقد ولد محمد بن عبد الله

---

(١) فتح الباري ٦/٥٠٤ حديث رقم ٣٥٣٢ وانظر ٨/٦٤٠ حديث رقم ٤٨٩٦.

(٢) فتح الباري ٦/٥٠٥

(٣) فتح الباري ٦/٥٠٥

(٤) فتح الباري ٦/٥٠٦

صلى الله عليه وسلم بعد ٥٧١ خمسمائة وسبعين عامًا من ميلاد عيسى عليه الصلاة والسلام (١)

وإلى هذه الفترة الطويلة من الزمن بين الرسولين الكريمين أشارت الآية الكريمة في القول: ﴿ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾

ويلاحظ أن الآية الكريمة تجمع بين الجملتين معًا: "أتى" و: "جاء"

فكلما أفادت جملة "أتى" البعد الزمان، أفادت جملة: "جاء" القرب الزمان، وكذلك أفادت جملة: "جاء" القرب المكان، فها هو ذا محمد صلى الله عليه وسلم يجيء حقًا، ويرسله ربه جل وعلا صدقًا.

---

(١) الأعلام ٦/١٨٠

(٦) دلالة جملة: «يأتي» على البعد المكاني:

وتضرب الملفات على هذا البعد المكاني بقوله تعالى في سورة النحل (١): ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾

المعنى، والله تعالى أعلم. وضرب الله تعالى مثلا يتعظ به الناس، ويأخذون منه العبرة، قرية، بمعنى المدينة، وهي مكة المكرمة، كانت آمنة من الخوف، مطمئنة لا يتكدر على أهلها منازلها عدو، يأتيها رزقها رغدا، واسعا كثيرا (٢) هنيئا مريئا (٣) من كل مكان. وخير ما يدل على هذا الأماكن، حلتا قبيلة قريش إلى الشام صيفا، وإلى اليمن شتاء، إذ لا يتعرض أحد بسوء لأي قافلة لقريش، لأنهم جيران البيت العتيق، ولأنهم يقدمون أجل الخدمات للحجاج، والمعتمرين، والزائرين للبيت الحرام. ومن أهم الخدمات التي تقدمها قريش لهذه القافلات وللبيت العتيق، حجابة البيت الحرام وسدانته، أي خدمته، والسقاية، وهي سقاية قريش لعموم الناس ماء زمزم،

---

(١) سورة النحل ١١٢

(٢) تفسير الطبري ٤/ ١٢٥

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٧

والماء الممزوج بالزبيب، والثريدة، أي إطعام قريش للناس الطعام. وهذه ثلاثة أمجاد لقريش تتوارثها بيوتاتهم كابراً عن كابر، من بين خمسة أمجاد، وابعها حمل لواء القتال، فقد آل لرجل مخزوم، ودار الندوة، التي تعقد قريش فيها كل أمر مهم ذي بال.

وإن قبيلة قريش التي تسكن مكة المكرمة يأتيها رزقها من أبعد الأماكن، ومن باب أولى يأتيها رزقها من أقرب الأماكن. وهذا الرزق يأتيها كثيراً موفوراً، وبأيسر السبل وأسهلها. وكانت قبيلة قريش على علم بما تتعرض له قوافل القبائل الأخرى من قطع طريق، واعتداء، وسرقة، وقتل.

إن قبيلة قريش لم تقم بما يجب عليها من شكر لله تعالى على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وحينما أكرمها الله تعالى ببعثة خير الأنام، وبدين الإسلام، لم تقم بما يجب عليها من المبادرة إلى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، والمسارعة إلى الدخول في دين الإسلام. إن قبيلة قريش قامت بعكس ما كان مطلوباً منها، وصفوا عنها.

إن قبيلة قريش كفرت بنعم الله تعالى، جمع النعمة، بمعنى الخفض والدعة والمال (1)، بل إن قبيلة

---

(1) لسان العرب: نعم"

قريش كانت زعيمة الكافرين الصادين عن دين الله تعالى.

وبعد نعمة الأمن التي كانت تنعم بها قبيلة قريش، ونعمة الإطعام من الجوع، أذاقها الله تعالى لباس الجوع بعد الشبع، ولباس الخوف بعد الأمن، بسبب ما كانوا يصنعون من ظلم وسبق إصرار، من كفر، وكفران، وصد عن سبيل الله تعالى.

وهكذا يتبين دلالة جملة: «فليعبدوا رب هذا البيت» من قرار رغداً من كل مكان بعيد على البعد المكاني.

ونذكر بهذه المناسبة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على كفار مكة وعلى سائر الكافرين، على نحو ما جاء في صحيح الإمام البخاري (1) قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: اللهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»

---

(1) فتح الباري 8/ 674 حديث رقم 4598

(٧) - دلالة جملة: "يأتي" على البعد النفسي:

ونضرب المثال على هذا البعد النفسي بقوله تعالى مخاطباً نساء النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب المدنية الكريمة. قال تعالى (١):

﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين. وكان ذلك على الله يسيرا ﴾

لقد تحدثت سورة الأحزاب المدنية الكريمة في العديد من الموضوعات، ومن هذه الموضوعات أمر الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم أن يأمر من آمن من نسائه وأقسم أن يحجبن شهر الأزواج طلبن منه، بعد غزوة الأحزاب وقد صار سيد بلاد العرب وما حولها صلى الله عليه وسلم من حكام الدنيا. وقد خيرهن صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة، فاخترن جميعهن رضوان الله تعالى عليهن الآخرة على الدنيا، ابتداءً بأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

وقد أثنى الله تعالى على أمهات المؤمنين في سورة الأحزاب في الآيات الكريمات من الثامنة والعشرين إلى الخامسة والثلاثين. وقد بينت الآيات الكريمات بعض الحقوق الخاصة بأمهات المؤمنين، وما يقابل هذا الفضل من الله تعالى عليهن من واجبات خاصة بهن، باعتبارهن الأسوة الحسنة للمؤمنات (٢).

---

(١) سورة الأحزاب ٣٠

(٢) انظر صفحات في إعجاز سورة الأحزاب ٧٢-٧٨

وإن الآية الكريمة المختارة من سورة الأحزاب دليلاً على إفادة جملة: "أن" البعد النفسي، هي الآية الكريمة الثالثة من سورة الأحزاب الكريمة، وهي بذلك تكون الآية الكريمة الثالثة، من بين الآيات الكريمات من الثامنة والعشرين إلى الخامسة والثلاثين، التي نزلت في هذه المناسبة.

وهذه هي الآيات الكريمات الثلاث الأول، التي سنتحدث بإذن الله تعالى عنهن، وقد اشتهرت هي التي جاءت فيها جملة: "أن" قال تعالى (1): ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً. يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾.

وكان ذلك على الله يسيراً، ثم تحدثت الآيات الكريمات بعد ذلك عن ثواب أمهات المؤمنين العظيم على الحسنات، وعن الواجبات الثقيلات الطفيفة عليهن وحدهن من رب العالمين.

ومعنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم، فيما يلي: يا أيها النبي الكريم، والرسول العظيم، قل لزوجاتك الطيبات الطاهرات الثلاث، اللاتي رضين الله تعالى رب زوجات، واصطفاهن لك: إن كنتن تردن هذه

---

(1) سورة الأحزاب ٢٨ - ٣٠

الحياة الدنيا الفانية، وزينتها الزائلة، فتعالين متعزيات مكرمات، أمتعكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق بقوله (١): ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾ (٢) وأسرحكن سراحا جميلا، وأطلقكن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله: (٣) ﴿إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ (٤)

ويلاحظ أن الأمر غير المرغوب فيه، وهو إرادة الحياة الدنيا وزينتها، قد جاء الحديث عنه في آية كريمة واحدة. أما الأمر المرغوب فيه وهو إرادة الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والدار الآخرة [illegible] وما ارتبط به من حقوق وواجبات، فقد جاء الحديث عنه في كل الآيات الكريمات التالية.

وإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وإن كنتن ترددن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما، عمل نحو ما تبين.

---

(١) سورة البقرة ٢٣٦
(٢) تفسير القرطبي ١١/٩٩
(٣) سورة الطلاق ١
(٤) تفسير القرطبي ١١/٩٩

ثم نتحول إلى الآية الكريمة الثالثة، موضع الشاهد والدليل على دلالة جملة: "أثر على البعد النفسي.

يا نساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، من يأت منكن بفاحشة مبينة ظاهرة من نشوز وسوء خلق، وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (1) وهذا لاحظ أننا بصدد أسلوب الشرط. والشرط لا يقتضي الوقوع (2) كما يلاحظ معي. جملة: "يأت" التي استعمل من القرآن الكريم إتيان، دليل على البعد. وهي تدل هنا على البعد النفسي، فما أبعد الفاحشة الواضحة عن رضوان الله عليهن من نشوز وسوء خلق، وهن اللاتي اصطفاهن الله تعالى زوجات طيبات طاهرات، لخاتم النبيين وأشرف المرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم.

إن نصيب من تأتين منكن هذا المستحيل من الفاحشة ضعف نصيب النسوة الأخريات من العذاب، وذلك لمنزلتهن الفريدة بين النساء. وكان ذلك العذاب الضعف يسيرا على الله تعالى.

وإليك بعض الاقتباسات المتعلقة بالآيات الكريمات. روى الإمام البخاري في صحيحه (3) أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه

---

(1) تفسير ابن كثير 6/ 404.

(2) تفسير ابن كثير 6/ 404.

(3) فتح الباري 8/ 519 حديث رقم 4785

وسلم أخبرته (أبا سلمة بن عبد الرحمن) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه فبدأ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني ذاكر لك أمرا، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك (1) وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمرانني بفراقه. قالت: ثم قال: إن الله قال: يا أيها النبي قل لأزواجك إلى تمام الآيتين. فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وروي أن المستيدة عائشة رضي الله عنها كما اختارت الله ورسوله والدار الآخرة رئي الفرح في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم (2).

فلما مضت تسع ويستبرون (ليلة) دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له: إنك أقسمت أن لا تدخل

---

(1) أي فلا بأس عليك في التأني وعدم العجلة حتى تشاوري أبويك (حتى تستأمري أبويك) أي تطلبي منهما أن يبينا لك رأيهما في ذلك فتح الباري 8/ 501

(2) تفسير الطبري 21/ 100

علينا شهرا، وقد أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدهن عدا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الشهر تسع وعشرون. وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين (1).

وانظر إلى فضل الله تعالى على حبيبه صلى الله عليه وسلم بأن كان ذلك الشهر تسعا وعشرين ليلة.

وانظر إلى مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم فورا إلى زوجاته وسروره بهذا الشهر الناقص وبمبادرته.

وانظر إلى فرح الزوجات الطيبات الطاهرات بمبادرته صلى الله عليه وسلم وذلك في قولها أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها والمعبر عنه في قولها رضوان الله تعالى عنها: "وقد أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدهن عدا".

---

(1) فتح الباري ٨/٥٢٤

(٨) دلالة جملة: «تأتي» على البعدين الزماني والنفسي.

ونضرب المثال على هذا البعد الزماني النفسي بالآية الكريمة الثالثة من سورة سبأ المكية (١) بكريمة قال تعالى (٢): ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة. قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾.

من المعروف أن المكي من القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة إلى المدينة المنورة يتميز بتميزين أساسين العقيدة، ومن بين هذه الأسس الحديث المستفيض دائما عن البعث بعد الموت، وعن قيام الساعة، وعن الثواب وجنات النعيم، وعن العقاب ونار الجحيم. والمعروف أن قضية البعث بعد الموت من أهم القضايا التي يرفضها الكافرون عموما، وهم معاصروه من كفار مكة. إن الكافرين عموما لا يتصورون بعثهم بعد الموت أحياء، بعد أن تمت أجسامهم ترابا وعظاما.

وهذه الآية الكريمة موضع المثال تتحدث عن يوم البعث، وتتحدث عن الكفار الذين ينفون قيام الساعة، وترد عليهم، فالله تعالى قادر على كل شيء، وعلى إحياء الموتى، فالله تعالى لا يعجزه شيء، مما

---

(١) الإتقان ١/٤٣.

(٢) سورة سبأ ٣

الأرض ولا في السماء. سبحانه.

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، على النحو التالي، وقال الذين كفروا ابتداءً بكفار مكة: لا تأتينا الساعة، وليس هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

وإن صح جملة: لا تأتينا هي تعبير عن البعث بعد قيام الساعة، تعبيراً عن صغار الكفار عن أن يفسروا، كما نعبر عن نفي قيام الساعة مهما يطل الزمان.

وتردّ الآية الكريمة فوراً على هذا الهراء، وطالما ذكر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لمنكري قيام الساعة: قل بلى وربي لتأتينكم هي وإن جملة: «لتأتينكم» تعبر عن البعث الزماني، فالساعة آتية لا ريب فيها بإذن الله تعالى.

بلى: حرف جواب لإثبات المنفي. الواو: واو القسم. ربي: مجرور بالواو متعلق بفعل محذوف تقديره أقسم، والمقسم: رب القسم. لتأتينكم: مضارع مبني على الفتح في محل رفع. والنون: نون التوكيد. كم: ضمير مفعول به (1).

إن الله تعالى هو عالم الغيب. وإن قيام الساعة

---

(1) الجدول في إعراب القرآن وصرفه 10/292

من الغيب الذي يأتي به الله تعالى إذا شاء.
والله تعالى لا يعزب عنه ولا يغيب (١) مثقال ذرة، ولا زنة (٢) ولا وزن (٣) أصغر نملة (٤) من السماء إلى الأرض، ولا أصغر مما أصغر نملة ولا أكبر إلا في كتاب مبين عن كل شيء وبين صواللوح المحفوظ (٥) المكتوب فيه كل شيء.

(١) تفسير القرطبي ٢٢/٤٣
(٢) تفسير القرطبي ٢٢/٤٣
(٣) الجلالين
(٤) الجلالين
(٥) الجلالين

(9) دلالة جملة: ﴿لَمْ يَأْتُوا﴾ على البُعدين المكاني والنفسي:

وضربت الأمثال على هذين البعدين المكاني والنفسي بالآية الكريمة الرابعة من سورة النور المدنية الكريمة. قال تعالى (1): ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

إن هذه الآية من سورة النور المدنية الكريمة.

والمعروف أن سورة النور، وسورة الأحزاب، من السور الكريمات التي عنيت بتبيين مجموعة من الأحكام، وبنيان المجتمع المسلم القائم على الفضيلة والأخلاق الكريمة.

وقد عنيت به سورة النور الكريمة في سبيل إقامة المجتمع المسلم، القائم على الطهر والعفاف، الحديث عن حكم الزنى، وحد فعل الفاحشة طريقه، والحث على الفضيلة والعفاف، وها هي ذي الآية الكريمة تتحدث عن جريمة قذف المسلمات الطاهرات العفيفات المحصنات، وعقاب القاذف، كما تتحدث في عشر آيات كريمات (2) عن حادثة الإفك، التي خاض فيها المنافقون، وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين زوج محمد صلى الله عليه وسلم الطاهرة، بقصد إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخص أم المؤمنين التي برأها

---

(1) سورة النور/ 4

(2) سورة النور/ 11 - 20

الله تعالى في محكم كتابه من خلق سبع سماوات.
وفي هذه الآية الكريمة الرابعة من سورة النور
نجد جملة: "أن" الدالة على البعدين، المكاني والنفسي.
ونحن نود أن نسير خطوة خطوة مع هذه الآية
الكريمة، التي تضع العراقيل في طريق القاذف.
إن الآية الكريمة تستعمل بشأن القاذفين
جملة: "يرمون". والمعروف أن جملة "رمى" تستعمل
حينما يكون الغرض بعيدا. وما أبعد الغرض الذي
يرمي إليه القاذف. إن المقذوف إن كان غير
محصن، وثبت عليه الذنب، فإنه يجلد مئة جلدة (1)
وإن كان محصنا متزوجا فإنه يرجم بالحجارة حتى
الموت.
وإن جملة: "يرمون" التي تعني أن البعد بعيد،
تفيد أن القاذف آخذ نابا بالهدف القريب. والجملة التي تستعمل
في حقه في سورة المائدة الكريمة في قوله تعالى: (2) يا أيها
الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم
ليعلم الله من يخافه بالغيب. فمن اعتدى بعد ذلك
فله عذاب أليم.
إن الصيد يتحرش بإذن الله تعالى بالمحرم بحيث
إنه يستطيع أن يمسك به بيديه، أو أن يطعنه برمحه،
فلا يحتاج إلى النبل مثلا. أما القاذف فإنه يرمي
الهدف البعيد عن متناول.

---

(1) سورة النور 2
(2) سورة المائدة 94

والمعروف أنه كلما بعد الهدف صعب على الرامي.
والآية الكريمة تصف النساء المسلمات بأرقى العفائف، الطاهرات، المحصنات، فكل واحدة منهن في حكم القابعة في حصنها، بعفافها وطهرها إن كانت غير متزوجة، وبزواجها وزوجها إن كانت متزوجة، هذه هي صفة المرأة المسلمة، التي تقر من بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا (1)

إن صفة الطهر والعفاف هي الأصل والأساس، والزنى أشارت الآية الكريمة بوصفهن بالمحصنات، حتى يثبت غير ذلك.

وهذه هي العوائق التي ينبغي أن يتخطاها القاذف.

أقول ما يصادفنا حرف العطف (ثم) وهنا كلام كثير ينبغي أن يقال. إن حرف العطف (ثم) يمثل أقصى مراحل البعد حسا ومعنى.

وهذه هي مراحل البعد حسا. إنه حينما يدخل زيد وعمرو معا مكانا ما نقول: دخل زيد وعمرو. فهما قد دخلا المكان معا، وليس بينهما أي تراتيب بحال من الأحوال، إنما اقترنا في انصراف إلى اجتماعهما معا، بدليل استعمالنا حرف العطف الواو. وحرف العطف الواو يفيد المصاحبة فقط، ولا يفيد شيئا من الترتيب.

فإذا أردنا أن نبين أن زيدا دخل أولا،

(1) انظر مفردات الراغب الأصفهاني: "حصن" 1/ 109

تلاه عمرو مباشرة قلنا : دخل زيد فعمرو.
فإذا دخل زيد الكلان ، وبعد وقت يمهل إلى
تشهي به من الطول استعملنا حرف العطف: ثم فقلنا : دخل زيد ثم عمرو.
وهذا البعد الذي يفيده حرف العطف حسيا،
أصبح هذا الحرف يفيده معنى . بمعنى أن حرف
العطف : ((ثم)) يفيد في مجال المعنى البعد الذي يفيده
الحرف في مجال الحس .
وقد ضربنا المثال على إفادة حرف العطف :
((ثم)) في مجال الحس . ونتحول إلى ضرب المثال
في مجال إفادة حرف العطف : ((ثم)) من مجال المعنى.
ويمكننا أن نأخذ هذا المثال على البعد المعنوي
فنأخذ من الآيتين الكريمتين الأوليين من
سورة الأنعام . قال تعالى : (1) : الحمد لله
الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات
والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذي
خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده.
ثم أنتم تمترون .
إن ثمة تباينا وعدم انسجام وتوافق بين
المقدمة والنتيجة . إن الحمد لله تعالى الذي خلق
وحده لا شريك له السماوات والأرض ، ويلاحظ
مجيء جملة : خلق ، التي تفيد خلق الله تعالى السماوات

---

(1) سورة الأنعام 1 و 2

والأرض على غير مثال سابق، وأوجدهما من العدم،
والحمد لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله، الذي جعل
الظلمات والنور، وبلاحظ معي، جملة: جعل، التي تفيد
أن الله تعالى جعل الظلمات والنور وصيرهما، فهما من متعلقات
السماوات والأرض، بإرادة الله تعالى.

إن الكافرين حينما يُسألون: من خلق السماوات
والأرض وجعل الظلمات والنور، يجيبون: الله
تعالى. ومن هذا المعنى جاء في سورة الزخرف، مثلاً، قوله تعالى: (١)
﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض
ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وحينما يدعون
إلى دين الإسلام وإفراد الله تعالى بالعبادة
ثم يرفضون دين الإسلام وإفراد الله تعالى
بالعبادة، يشركون مع الله تعالى القادر على
كل شيء، الآلهة المزعومة العاجزة عن فعل كل
شيء من العبادة، ويجعلون لله عز وجل شريكاً
وعِدْلاً، ويتخذون له صاحبة وولداً، تعالى الله
عز وجل عما يقولون علواً كبيراً (٢) يقال من مساواة
الشيء بالشيء، عدلت هذا بهذا إذا ساويته به
عدلاً (٣) إنه ليست ثمة انسجام بين الاعتراف
بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، وبين

---

(١) سورة الزخرف ٩
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٢
(٣) تفسير الطبري ٧/٩٣

الإشراك بالمشركين الآلهة العاجزة في العبادة
مع الله تعالى القادر على كل شيء.

وكما أفادت ثم البعد المعنوي وغير المنطقي
بين المقدمة والنتيجة في هذه الآية الكريمة
التي وردت في سورة الأنعام، أفادت الآية الكريمة
الثانية. قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من
طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم
تمترون﴾

فالله تعالى هو الذي خلقنا من طين في حقيقة
أبينا آدم عليه السلام (١) ثم قضى عز وجل
أجلا، وحدد لنا عمرا، وذلك ما بين أن نخلق
إلى نسيان إلى أن نقوم (٢) وأجل مسمى
عنده عز وجل لا يعلمه إلا هو (٣) وذلك ما بين
أن نموت إلى أن نبعث (٤)
ثم أنتم أيها الناس تشكون في أمر الساعة (٥)
وهكذا أفاد حرف العطف هذا البعد المعنوي
فليس هناك انسجام وتوافق بين المقدمة والنتيجة.

---

(١) سورة الأنعام ٢
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٤
(٣) تفسير الطبري ٧/٩٤
(٤) تفسير ابن كثير ٧/٤٣٥
(٥) تفسير الطبري ٧/٩٤
(٦) تفسير ابن كثير ٧/٤٣٥

وهكذا يكون حرف العطف "ثم" هنا في المرة الأولى على بابه "ثم قضى أجلا" وفي المرة الأخرى خاد البعد المعنوي على غرار ما رأيناه عند البعد المعنوي في الآية الكريمة الأولى من سورة الأنعام.

وبشأن آية سورة النور يأتي حرف العطف "ثم" الذي يفيد البعد المعنوي. وهذا البعد المعنوي قوة للبعدين المكاني والنفسي اللذين يفيد صداهما القول: فهم لم يأتوا بما بعد الشهداء الأربعة على حد القذف مكانيا ونفسيا.

ونؤكد على عدد الشهداء في هذه القضية فهم أربعة شهداء.

كما نؤكد على أن الأربعة الذين يدلون بالشهادة في هذه المسألة التي لا غرض لها إلا تبرئة ساحة السيدة عائشة رضي الله عنها، هؤلاء الذين يدلون بالشهادة شهداء في بلاغة الغاية في الأصلية لأداء الشهادة، وفي الإحاطة بكل جوانب القضية التي يدلون فيها بالشهادة، وفي الأمانة (1).

إن هذا القاذف، إن هؤلاء القاذفين إذا لم يأتوا بهؤلاء الشهداء الأربعة، فإن كل واحد منهم يجلد ثمانين جلدة حد القذف، ولا تقبل شهادة

---

(1) انظر صفحة التفسير البسيط للقرآن الكريم 18/ 182 ومفردات الراغب الأصفهاني: "شهد" ص 305

أي واحد منهم في المستقبل أبدا. وأن ثبت عند الله تعالى هم ألفا مستقون الخارجون عن الصراط المستقيم، صراط الله تعالى، وصراط رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وتستثنى الآية الكريمة التالية في مجال الشرط: من تاب واستقبلا فمن تاب وعمل صالحا. ومفروض شروط التوبة النصوح. قال تعالى (1): إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم.

ويلاحظ أن الآية الكريمة تكتفي بشأن التائب بالتوبة والعمل الصالح، ولا تتحدث عن الإيمان. مما يدل على أن القاذف يظل مؤمنا.

والله تعالى أعلم.

---

(1) سورة النور / ٥

(١٠) دلالة جملة "يأتي" على البعد المكاني، والزماني والنفسي:

ونضرب المثال على هذا البعد المكاني والزماني والنفسي بالآية الكريمة الثامنة والثمانين من سورة الإسراء المكية الكريمة. قال تعالى (١): ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾

من المعروف أن هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء إنما هي آية التحدي بالقرآن الكريم، إذ لا يستطيع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم ولو اجتمعوا جميعا وتعاونوا وتظاهروا.

والمعروف أن القرآن الكريم أشرف كتب الله تعالى، وقد أنزله الله تعالى على أشرف خلقه محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين، عليهم جميعا صلوات الله تعالى وسلامه.

والقرآن الكريم كبرى معجزات محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. فالمعروف أن الحق عز وجل يؤيد كل رسول بالمعجزة التي يتحدى الرسول قومه بها، لأنهم متفوقون في المجال الذي يتم فيه التحدي، كي يتأكد عجز القوم.

إن قوم موسى عليه الصلاة والسلام متفوقون في مجال السحر، وقد جاء موسى عليه السلام يتحدى قومه في المجال الذي نبغوا فيه، وهي آيات

---

(١) سورة الإسراء ٨٨

موسى عليه السلام التسع، وفي مقدمتها اليد والعصا.

وإن قوم عيسى عليه الصلاة والسلام متفوقون في مجال الطب. وها هو ذا عيسى عليه السلام يتحدى قومه في الحقل الذي نبغوا فيه. وها هي ذي آيات عيسى عليه السلام التي تحدى بها أطباء قومه. ومن هذه الآيات إبراء الأكمه، أي الأعمى المطموس العينين، والأبرص. والبرص هو المرض الذي يُعيي الأطباء دائما، وبأتي عمل رأس معجزات عيسى عليه السلام إحياؤه الموتى بإذن الله تعالى.

ويلاحظ أن كل آيات المرسلين السابقين في مجال التحدي حسية. وليس من بين آيات التحدي ما هو إعجاز في مجال البيان. إن توراة موسى عليه السلام - مثلا - كتاب هداية، وليس له علاقة بالتحدي. فالتحدي مجاله الآيات المحسوسة. وإن إنجيل عيسى عليه السلام كتاب هداية، وليس له علاقة بالتحدي. فالتحدي مجاله الآيات المحسوسة.

وينفرد محمد صلى الله عليه وسلم بأن آيته الكبرى، وهي القرآن الكريم، تجمع بين الهداية والمعجزة معا. إن معجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وحدها معجزة بيانية.

وقد اتخذ التحدي بالقرآن الكريم عدة صور، يتم فيها دائما التحول من الأصعب إلى الصعب، إلى التسهيل، إلى الأسهل. وكان العجز دائما يؤيد أن الذين

تحداهم وإليك هذه الصور أو الخطوات.

ثم التحدي بطلب الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم كاملاً، كما هو الحال في آية سورة الإسراء الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها. وكما هو في قوله تعالى في سورة الطور المكية (١) قال تعالى (٢): ﴿أم يقولون تقوّله. بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾

ثم تحول التحدي إلى طلب عشر سور مثل القرآن الكريم مفتريات. جاء في سورة هود المكية (٣) قوله تعالى: (٤) ﴿أم يقولون افتراه. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

ثم تحول التحدي إلى طلب سورة واحدة مثل القرآن الكريم. جاء في سورة يونس المكية (٥) قوله تعالى (٦): ﴿أم يقولون افتراه. قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

ثم تحول التحدي إلى طلب سورة واحدة من مثل القرآن الكريم. جاء في سورة البقرة المدنية (٧) قوله

---

(١) الإتقان ١/ ٤٣
(٢) سورة الطور ٣٣ و ٣٤
(٣) الإتقان ١/ ٤٣
(٤) سورة هود ١٣
(٥) الإتقان ١/ ٤٣
(٦) سورة يونس ٣٨
(٧) الإتقان ١/ ٤٣

تعالى (١) : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾

وأول ما نود التنبيه عليه هو أن كل آيات التحدي جاءت فيها جملة : ﴿ التي ﴾ الدالة على البعد بأنواعه .

وبشأن الآية القرآنية من سورة الإسراء موضع المثال نبدأ بأمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لكل من خلق الله تعالى ، ابتداءً بلفظ الجلالة : قل يا محمد ، والله الذي لا إله إلا هو ، لئن اجتمعت الإنس كلهم ولم يتخلف عن الحضور إنسي واحد ، ولئن اجتمعت الجن كلهم ، ولم يتخلف عن الحضور جني واحد ، في صعيد واحد ، ومكان واحد ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ومعينا .

ويلاحظ أننا أمام مجموعة من المستحيلات ، ومع ذلك فلو افترضنا جدلا أن هذه المستحيلات قد اجتمعت من أجل الإتيان بمثل هذا القرآن ، فإن المجتمعين ولو تعاونوا فإنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

ونود أن نشير إلى كل صعوبة على حدة .

صعوبة اجتماع كل الإنس في صعيد واحد من أجل هذه الغاية . وهل هناك قضية واحدة اتفق عليها الإنس جميعهم منذ عهد آدم عليه السلام كي يجتمعوا الآن من أجل هذه القضية .

(١) سورة البقرة ٢٣

إنّ الإنس مختلفون دائما. وأين هو الصعيد الذي يتمسح لهم، ثم إنّ المفروض أنّ الإنس يجتمع جميعهم، لا يشذ منهم إنسيّ واحد، من أجل قضية واحدة.

وهل يجتمع الإنس وحدهم؟ لا. إنهم يجتمعون مع الجن. وإذا كان الإنس الذين يؤنس بهم لأنهم يُبصرون (١) قد اجتمعوا وآنس بعضهم بعضا، فكيف يجتمعون مع الجن، وهم خلق الله تعالى المستورون من الحاسة (٢)؟ إنّ المفروض في الجن أن يجتمعوا جميعا، في صعيد واحد، مع الإنس جميعا. وواضح أننا أمام مجموعة مستحيلات. وإنّ ما بُني على المستحيل الواحد مستحيل. فكيف ونحن أمام هذه المجموعة من المستحيلات.

أمّا الغرض المستحيل الذي يتم الاجتماع من أجله في هذه الصورة، فضلا عن تحقيقه، فرُبّما الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم.

وإنّ الذي يُقدّر من هذه المستحيلات مجيء جملة (أتى) التي تدل على البُعد في جميع صُوَره.

والنتيجة هي استحالة الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم. ولو كان بعض المجتمعين يُعين بعضهم الآخر بكل ما أوتي من قوة. وقد دلّ على هذه القوة المتناولة مجيء لفظة ظهير، بمعنى مُعين، وذلك لعلاقة هذه اللفظة بالظهر، وهو أقوى أجزاء الجسد. إنّ لفظ

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني ١/٣٥

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني ١/١٢٨

ظهر له علاقة بالظهر. والظهر أقوى أجزاء الجسد من الإنسان وحتى الحيوان. وهاهو اللفظ نطلق على الحيوان الصحيح الجسم. إن صلاح الظهر دليل على صلاح جسد الإنسان والحيوان. ومن هنا جاءت لفظة ظهير، التي تستمد قوتها من الظهر. والمراد بالظهر هنا الظهر. وفقار الظهر نوعي من العظم. وأقوى شيء في الجسم الحي والميت عظام ظهره، بدليل تسرب البلى إلى الجسم بعد الموت إلا عصيرة ترابا فعظاما.

وهكذا يتبين استحالة الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، مع اجتماع هذه المستحيلات وتحققها. وهكذا يتبين دائما وأبدا دور جملة «لا» على كل أنواع البعد، وعلى استحالة الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم.

إن جملة «لا» تدل على البعد المكاني بما فوق الصعيد الذي يجتمع فيه كل الإنس والجن. وعلى البعد الزماني، فلا تتحدى بالقرآن الكريم دائما إلى يوم القيامة، وعلى البعد النفسي. فلا تشعر النفس بعجزها عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، يوقع كل نفس في اليأس. وهذا اليأس راحة كما يقال.

والله تعالى أعلم.

توظيف النظرية في خدمة موضوعين اثنين من القرآن الكريم

(١) توظيف التقريبة يدرك أن إخوة يوسف ليسوا عشرة محضا:

هذا المثال المختار يتعلق بجملة "جاء" التي تفيد التقريب، وفي هذا المثال تدل جملة: "جاء" على التقريب المكاني والزماني. وقد جاءت هذه الجملة في الآية الكريمة من سورة يوسف عليه السلام، إذ الآيات الكريمات في السورة المكية الكريمة، التي تبين قصة عشرة من إخوة يوسف عليه السلام الشقيقين من الأم راحيل (١) وهما أصغر الإخوة الاثني عشر ليعقوب عليه السلام، وهما يوسف عليه السلام الأخ الحادي عشر، وشقيقه بنيامين، الأخ الثاني عشر، وهما آخر أبناء يعقوب عليه السلام المذكور.

وهذه الآيات الكريمات مبينا أن المثال من الآية الكريمة السابعة من سورة يوسف عليه السلام، حتى الآية الكريمة التاسعة عشرة، أي أنها بصدد ثلاث عشرة آية كريمة. قال تعالى (٢): ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين. إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين. قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين. قالوا يا أبانا

(١) قصص الأنبياء ٥٤٠/ لابن كثير بيروت ١٤٢١هـ ٢٠٠١م
(٢) سورة يوسف ٧ - ١٩

مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا
غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون. قال إني ليحزنني
أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون.
قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون.
فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب. وأوحينا
إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وجاءوا أباهم
عشاء يبكون. قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف
عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا
صادقين. وجاءوا على قميصه بدم كذب. قال بل
سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان
على ما تصفون. وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم
فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة
والله عليم بما يعملون.

ونود أن نشير سريعا على معنى الكلمات
الكريمات بإيجاز.

تقرر الآية الكريمة الأولى بأنه كان في يوسف عليه
السلام وإخوته الأحد عشر آيات عجيبة وأخبار غريبة
للسائلين عن قصتهم الفريدة. ويبين السياق تلك الأحوال،
فيقول: اذكر يا محمد إذ قال إخوة يوسف لأبيه العشرة،
ليوسف وأخوه الأصغر بنيامين، ويلاحظ أنهم يقولون:
«وأخوه» ولا يقولون: وأخونا، لما أحب إلى أبينا
يعقوب عليه السلام منا، ونحن عصبة وجماعة (١) تعصب

(١) تفسير الطبري ١٢/٩٢

بنا الأمور وتناول المرتبات. إن أبانا لفي ضلال مبين، وخطأ واضح.

ويلاحظ أن الحسد أعمى الإخوة عن كون أبيهم يعقوب عليه السلام، نبيا من أنبياء الله تعالى، كما أن الحسد قد أعماهم عن إدراك الطبيعة الفطرية من تفضيل الوالدين لأصغر الأبناء. ثم إن يعقوب عليه السلام تنبأ بنور من الله تعالى بأن ابنه يوسف سيكون له شأن عظيم مستقبلا، خاصة إذا تذكرنا رؤيا يوسف، التي قصها على أبيه يعقوب عليه السلام، المتعلقة بالأحد عشر كوكبا والشمس والقمر، وقد رأى يوسف من الرؤيا الجميع ساجدين له. وقد فهم يعقوب عليه السلام صدق الرؤيا، وفهم ما ستؤول إليه بإذن الله تعالى.

واستمر الإخوة من عمى البصيرة قائلين: هو اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين. إن فريقا من الإخوة يقترح قتل يوسف بطريق مباشر. وإن فريقا آخر يقترح طرح يوسف أرضا مخوفة يموت فيها بالعطش، أو بالجوع، أو بنائب، أو بقاطع طريق، وما إلى ذلك. وهذا طبعا إلى التين تنخلص الإخوة من يوسف، ويخلو لهم وجه أبيهم. وبعد أن يحقق الإخوة النزوة الشيطانية يتوبون إلى الله تعالى توبة نصوحا، ويكونون كما كانوا قوما صالحين من قبل.

ويلاحظ أن الإخوة لا تزال فيهم بذرة الخير، وهي

قابلة للنمو. وهذه هي الدلالة الثالثة لهذه الآية الكريمة.

م - الاقتراح الأول الذي سوأ بقتل يوسف بجب وفي القول: هو اقتلوا يوسف هكذا وليس هذا القول: لنقتله يوسف. وبذلك يلتقي هذا الفريق مع الإخوة بالاقتراح القتل، ويريد من الإخوة الآخرين التنفيذ.

ب - الاقتراح الثاني أقل سوءا من الأول، وهو اقتراح طرح يوسف أرضا مخوفة، يتم فيها قتل يوسف بطريق غير مباشر. وهذا الاقتراح الثاني تكمله مجموعة ثانية من الإخوة. ومع أن هذا الاقتراح أقل سوءا من الأول، فإن أصحاب هذا الاقتراح يجب على لسانهم القول: هو أو اطرحوه أرضا هكذا وليس القول: أو لنطرحه أرضا وبذلك يلتقي هذا الفريق بالاقتراح، ويريد من الآخرين التنفيذ.

جـ - يتعين الشيء الذي من أجله يطرح الرأيان. هو يخل لهم وجه أبيكم هكذا ويلاحظ الإشارة إلى الأب من خلال أشرف الأجزاء وهو الوجه. ويخل سوء القصد يلازم حيثما يجب على لسانهم القول هو أبيكم هكذا وليس أبينا. فلا زال يوسف وبنيامين شخصيتين متنوعتين.

د - وتغلب صيغة الصلاح في القول: هو وتكونوا من بعده قوما صالحين هكذا فقد أضمر التوبة قبل الذنب(1)

---

(1) تفسير ابن كثير ج/ ٣٠٠

هـ - تحوّل فريق من الإخوة إلى الرأي الأقل سوءاً، وهو رفضهم الرأي الأول. ويلاحظ أن الفريق الأول لم يتمسك برأيه الأشد سوءاً.

و - الأخ الذي اقترح الرأي الثالث الأقل سوءاً، وذلك بالقاء يوسف في غيابة الجب وذلك في قوله تعالى: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ هو الأخ الأكبر الذي وضع الله تعالى في قلبه القدر الضئيل من المحبة ليوسف ومن الرحمة. وهذا الرأي الثالث يمثله الأخ الأكبر وحده أو الأخ الكبير. وقد تم استنتاج هذا المعنى من الآية الكريمة الثامنة من السورة الكريمة التي تشير إلى بلوغ الإخوة العشرة مرحلة اليأس من أن يأخذ العزيز واحداً منهم مقابل الأخ الأصغر الذي ثبتت عليه في مصر ظاهرة السرقة، بدليل سكوته على التهمة. قال تعالى (١): ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً. قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم: فلما تمكن اليأس من الإخوة العشرة من أن يأخذ العزيز

---

(١) سورة يوسف ٨٠

واحداً منهم مُستَرقاً بدلاً من شقيق يوسف، انفرد الإخوة
عن الناس متناجين، والنجي الكبير الموقوة، صاحب الرأي
بالقاء يوسف في غيابة الجب، انفجر كأنه برکان
ثائر، خاطباً: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم
موثقاً وعهداً مؤكداً بأن تأتوه ببنيامين إلا أن
يشاء الله تعالى شيئاً غير ذلك، ومن قبل قد فرطتم
في يوسف، فلن أبرح أرض مصر ولن أعود إلى أبي،
حتى يأذن لي أبي في العودة، أو يحكم الله تعالى
لي بغير ذلك، وعاد بالطبع سراحاً بنيامين،
وربما بعودة يوسف أيضاً، والله تعالى هو
خير الحاكمين (١)

ويلاحظ على الآية الكريمة العاشرة أنها تتضمن في
سورة يوسف (أي الأخ الكبير أو الأكبر) بالقاء يوسف
في غيابة الجب حالياً.

ج - جاء في الآية الكريمة القول: «قال
قائلاً منهم» فالمقصود في هذا الموقف هو القائل الذي
يمثل رأياً قائماً برأسه. وليس يعنينا هنا الشخص
القائل. وفي المناسبة القادمة نعرف أنه هو الأخ
الكبير أو الأكبر.

ب - الجار والمجرور: «منهم» يفيد أن صاحب هذا
الرأي هو أحد الإخوة.

د - اعتبر هذا الأخ الرأيين الأولين رأياً واحداً،

(١) التفسير المبسط لقرآن الكريم ١٣/٦/٢

صوب القتل. وبذلك رفع مستوى الرأي الثاني الأقل سوءاً إلى مستوى الرأي الأول الأسوأ، وليس العكس. فلم يقل: "اطرحوا يوسف أرضاً"، فمثل هذا القول يوصي إلى احتمال نجاة يوسف، ولا يرفع الرأي الثاني المقترح إلى مستوى الرأي الأول الأسوأ.

د - اقترح هذا الأخ رأياً ثالثاً بديلاً هو:

هو: أن لقوه من غيابة الجب بغية عملية إلقاء من أجل امتصاص اندفاع الفريقين صاحبي الرأيين. وجاءت لفظة (غيابة) بمعنى أسفل الجب (١) وقعره (٢) ويجيء لفظ الجب معرفاً بأل العهد. فالحديث هنا عن بئر غير مطوية معروفة للجميع قريبة، وليست بئراً بعيدة مجهولة. وهذا القول مريب، يقول بعده: قد يلتقطه بعض السيارة، أي يأخذه بعض عابرة الطريق من المسافرين (٣) والسيارة الجماعة (٤) المسافرة.

هـ - إن إلقاء ليس غاية في ذاته، إنما هو من أجل أن يلتقط يوسف بعض الجماعات المسافرة بالقوافل.

و - يختم الأخ القائل بهذا الرأي الأقل سوءاً

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٠٠

(٢) تفسير الطبري ١٢/٩٣

(٣) تفسير الطبري ١٢/٩٤

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني: "سيار" ١/٣٢٥

بالقول الذي جاء تنزيلاً للآية الكريمة: ﴿إن كنتم فاعلين﴾ المعنى، هذا هو الرأي المقبول لجميع إن كنتم فاعلين ومصرين على التخلص من يوسف أما إذا لم تفعلوا مصرين على الفعل فاتركوا المسألة واقنعوا كلها بعرض الله المؤمنين القتال.

ويلاحظ أن كل إخوة واتفقوا على هذا الرأي.

ويلاحظ أن القضية الوحيدة التي اتفقت عليها الجماعات في سورة يوسف والرأي الوحيد الذي تم عليه الإجماع هو هذا الرأي. وإلى هذا الإجماع على هذا الرأي أشارت السورة الكريمة في موضعين اثنين. الموضع الأول في الآية الكريمة الخامسة عشرة. قال تعالى (١): ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب. وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ ويلاحظ أن عملية التخلص من يوسف جاءت من صيغة جعله يلقى في غيابة الجب، وليس بإلقائه.

والموضع الآخر في الآية الكريمة الثانية بعد المئة. قال تعالى (٢): ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ وإن اتفاق الإخوة جميعاً على هذا الرأي الأخير الأقل سوءاً دليل على أنهم ليسوا شراً محضاً. والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة يوسف ١٥

(٢) سورة يوسف ١٠٢

وإن هذه النظرية اللغوية الجديدة في إعجاز القرآن الكريم تؤكد أن إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ليسوا سبعة أو ستة أو عشرة بل هم أكثر من ذلك بكثير، وهذا هو السر في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وهذه الآية الكريمة، والله تعالى أعلم: إن إخوة يوسف عليه السلام بعد أن جعلوا أخاهم يوسف في ذلك الجب، وكانوا حريصين على أن لا يراهم أحد، غادروا المكان فورا، تاركين يوسف لمصيره. وبمجرد أن غادر الإخوة المكان جاءت قافلة من أرض مدين(2) وحطت رحالها في ذلك المكان وكانت حاجتها إلى الماء كبيرة، فأرسلت واردها الذي يرد الماء ليستقي منه (3) فأرسل دلوه في البئر (4) وفقا لعادة جرت عادة الذي يرسل دلوه أن يرقب دلوه إلى أن تنزل على حافة فيخرج، فرأى ما رأيته بشأن السقاة. وكأن الله لوحيه أرشده بالماء فظهر له صوت، تحرك من أجله

---

(1) سورة يوسف 19

(2) الجلالين

(3) الجلالين.

(4) تفسير الطبري 12/99 ومفردات الراغب الأصفهاني 1/228

يوسف حركة غير متوقعة صرفت نظر السائق عن الدلو إلى الجسم المتحرك. وكان بفضل الله تعالى صحيح البصر الذي أبصر به يوسف الغلام، الذي بلغ حد الغلومة (١) لقد رأى يوسف رغم ضعف النور. ويفهم أن البئر غير المطوية غيبته بعيدة القعر. لقد فرح السائق بما رأى فنادى: أيتها البشرى هذا أوانك، فاتنا لن أعود بالماء وحده، إنما أعود بالماء وبغلام لم أدفع فيه شيئا.

ونفهم أن يوسف تعاون مع السائق للخروج من الجب، فأخذه العارد إلى القافلة التي أسرت الغلام بضاعة لم تدفع فيها أي مبلغ، وستبيعها في أول سوق تصادفه هناك، وصادف أن سوق أرض مصر.

إن كل الذي جرى بعلم الله تعالى الذي يرعى يوسف عليه السلام، والله يعلم ما عملت القافلة. ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وإن مجيء جملة "يعملون" وليس: يفعلون، ينبه إلى أن ما قامت به القافلة عمل أقرب إلى الذين، وليس فعلا أقرب إلى الخشونة.

وهكذا تدل جملة: ﴿وجاءت سيارة﴾ على القربين المكاني والزماني معا. وبذلك ثبت أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا شرا محضا.

والله تعالى أعلم.

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني: فلم "٢/٢٧٢".

(٢) توظيف النظرية يرجح رأي مدرسة في التفسير على رأي مدرسة أخرى:

هذا المثال المختار يتعلق بجملة: "جاء" أيضاً. وهي تفيد هنا القرينتين المكانية والزمانية معاً. وقد جاءت هذه الجملة في الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة القصص المكية (١) الكريمة. وهذه الآية الكريمة ترتبط بمجموعة من الآيات قبلها، وآية كريمة بعدها، بسبب الترابط المعنوي بين هذه الآيات الكريمات. ولذلك فنحن بحاجة إلى أن نتحدث عن الآيات الكريمات من السابعة عشرة حتى الحادية والعشرين. وبهذا يتبين أن هذه النظرية القرآنية التفسيرية ترتبط بالآية الكريمة التي جاءت فيها الجملة وحدها، أو جاءت مع الجملة الأخرى بنوعها، "أي" مع غيرها من الآية أو الآيات الكريمات. وهذه هي الآيات الكريمات الثمان (٢) قال تعالى:

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين. فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي

---

(١) الإتقان ١/٤٣

(٢) سورة القصص ١٤-٢١

استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى إنك لغوي مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس. إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين».

وهذا هو معنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم. ولما بلغ موسى عليه السلام أشده (١) أي صار شابا قويا وفتوة في شبابه وحده (٢) واستوى وتناهى في شبابه وتم خلقه واستحكم (٣) آتيناه حكما أي نبوة وعلما وفقها من الدين قبل أن يبعث نبيا (٤) وكذلك نجزي المحسنين، الذين بلغوا مرتبة الإحسان، الوجه الآخر للتقوى. والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٥)

ويلاحظ وجه الشبه بين الآية الكريمة هنا، وبين الآية الكريمة الثانية والعشرين من سورة يوسف، التي تحدث

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/٢٧
(٢) تفسير الطبري ١٠٥/١٢
(٣) الجلالين
(٤) الجلالين
(٥) صحيح البخاري ١/٢٠

عن يوسف عليه السلام. قال تعالى (١): ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾. وكذلك نجزي المحسنين.

وقد جاء في حق موسى عليه السلام القول: "واستوى" وقد عرفنا المعنى بأنه منتهى القوة، إذن موسى عليه السلام ستتوظف هذه القوة في ركز القبطي، ولا يحتاج يوسف عليه السلام هذه القوة.

إذ موسى عليه السلام، دخل مدينة منف (٢) مدينة فرعون (٣) من مصر (٤) على حين غفلة من أهلها: وذلك عند القائلة نصف النهار (٥) فوجد موسى عليه السلام رجلين يقتتلان. هذا من شيعته، أي من أهل دين موسى من بني إسرائيل (٦) وهذا من عدوه، أي من القبط من قوم فرعون (٧) فاستغاث الإسرائيلي موسى عليه السلام وطلب غوثه ونصرته (٨) ونجدته، فاستجاب موسى عليه السلام على القوي، فوكز القبطي، وتهزه في صدره بجمع كفه (٩) وكزة واحدة،

---

(١) سورة يوسف ٢٢

(٢) معجم البلدان: "منف" ٥/٢١٣ و٢١٤

(٣) معجم البلدان: "منف" ٥/٢١٤

(٤) معجم البلدان: "منف" ٥/٢١٣ وتفسير الطبري ٢٠/٢٨

(٥) تفسير الطبري ٢٠/٢٨

(٦) تفسير الطبري ٢٠/٢٩

(٧) تفسير الطبري ٢٠/٢٩

(٨) مفردات ألفاظ القرآن الأصفهاني: "غوث" ٢/٤٧٦

(٩) تفسير الطبري ٢٠/٢٩

قصة موسى عليه السلام مع القبطي وقتله (١)

إن موسى عليه السلام المرشح للنبوة استيقظ ضميره سريعًا، إذ أدرك أن ما قام به القبطي الآن يستحق القتل، ففزع إلى الله تعالى فقال: إن هذا لقتل الذي حكمنا به مما يعمل الشيطان الرجيم إنه عدو مضل مبين (٢)

إن الشيطان عدو لجنس الإنسان يبين عداوته لهم قديمًا وحديثًا لآبائهم وأمهاتهم (٣)

وندم موسى عليه السلام ربه جل وعلا قائلًا: رب إني ظلمت نفسي بقتل النفس التي لم تأمرني بقتلها (٤) فاغفر لي ذنبي، فغفر جل وعلا لموسى عليه السلام، إنه عز وجل هو الغفور الرحيم. أما وقد تاب موسى عليه السلام توبة نصوحا، واستغفر ربه جل وعلا، وأحسن موسى عليه السلام فيما قدمه أن الله تعالى قد استجاب له دعاءه، فإذ موسى عليه السلام خاطب ربه عز وجل قائلا: إنه بسبب إنعامك علي يا رب بقبول توبتي فإني لن أكون معينا لأي مجرم مستقبلا.

إن عملية قتل الرجل القبطي ليست عملية سهلة. بل إنها ينبغي أن يكون لها تبعات، وعواقب من التعقيدات، ومشاكلات من الحكام.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/٣٠

(٢) تفسير الطبري ٢٠/٣٠

(٣) تفسير الطبري ٢٠/٣٠

(٤) تفسير الطبري ٢٠/٣٠

أصبح موسى عليه السلام من مدينة منف، عاصمة فرعون قديماً، قاهرة الأزهر الشريف، جامعاً وجامعة حديثاً، خائفاً من تبعات قتله الرجل القبطي بالأمس.
وبينما موسى عليه السلام منهمك في التفكير في هذه المعضلة وكيفية التخلص بعون الله تعالى من تبعاتها، فإذا الإسرائيلي، الذي طلب نصرته بالأمس ضد الرجل القبطي المقتول، يطلب منه اليوم العون، صارخاً صائحاً مستغيثاً (١) طالباً منه العون على فرعوني آخر (٢).
أدرك موسى عليه السلام أن صاحبه الإسرائيلي رجل مشاغب، وأنه لا يستطيع أن يعالج أموره، ويداري شئونه، فقال له موسى عليه السلام: إنك رجل ذو غواية (٣) واضح الغواية، فقد تبينت غوايتك بقتالك أمس رجلاً واليوم آخر (٤)، وبسببك قتلت بالأمس قبطياً، وتريد مني اليوم أن أقتل قبطياً آخر.
وعلى الرغم من حرص موسى عليه السلام على ضبط نفسه، فإن ظلم فرعون والقبط لموسى وبني إسرائيل كاد يحمل موسى على تكراره اليوم خطأه بالأمس.
وحينما أراد موسى عليه السلام اليوم أن يبطش بالرجل القبطي الآخر، قال الذي كاد يبطش به موسى عليه السلام، يا موسى، أتريد أن تقتلني اليوم كما قتلت نفساً بالأمس.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: "صرخ" ٣/٣٤٨
(٢) تفسير الطبري ٢٠/٣١
(٣) تفسير الطبري ٢٠/٣١ وغواية، بفتح الغين.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/٣١

ما تريد يا موسى إلا أن تكون جبارًا مفسدًا في الأرض، وما تريد أن تكون واحدًا من المصلحين.

ونحن نريد أن نعرف الرجل الذي قال لموسى عليه السلام: ﴿يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس﴾ هل هو الرجل القبطي، كما يدل عليه سياق الكلام واتجاهه المباشر، وهذا رأي مدرسة من التفسير، أم هو الرجل الإسرائيلي الذي أحس بالخوف حينما هم موسى عليه السلام أن يقوم ببطش من جنس ما قام به بالأمس، فظن الإسرائيلي أن موسى عليه السلام أراد أن يبطش به هو اليوم، فقال الإسرائيلي هذه المقالة. وهذا رأي مدرسة من التفسير أخرى.

ونود أن نشير إلى أن هذا الرأي الأخير رأي أكثر المفسرين، ومنهم الإمام الطبري، تفسير الطبري ٢٠/٣٥ والحافظ ابن كثير تفسير ابن كثير ٦/٣٧٢ والإمام القرطبي، تفسير القرطبي ٦/٢٩١١ وأبو حيان في البحر المحيط ٧/١١٠ والزمخشري في الكشاف ٢/٤٦٩، وتفسير الجلالين، والإمام السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٤٠ وابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤/١٥٣ ونظم الدرر للبقاعي ١٤/٢٦٠

ونحن نود أن نشير إلى أدلة كل أصحاب رأي.

(١) أدلة أصحاب الرأي الأول بأن القائل: ﴿يا موسى أتريد أن تقتلني﴾ هو الرجل القبطي.

ه - انسجام معاني أجزاء الكلام.

ب - انسجام اتجاه الضمائر، إذ المعنى: يا موسى، أتريد أن تقتلني أنا الرجل القبطي اليوم كما قتلت بالأمس الرجل القبطي الأول.

ج - يُظن أن الرجل الإسرائيلي المندفع المتهور ليس هو الرجل الذي يكتم مثل هذا السر، بقتل موسى الرجل القبطي، أو بتخفيه عن أعز أحبابه من الإسرائيليين، رغم ما يترتب على إفشاء السر من خطر على حياة موسى عليه السلام.

د - قضية قتل رجل قبطي هو مدينة منف، وغيرها كان الصراع محتدمًا بين الأقباط والإسرائيليين تتجه بشأنها أصابع الاتهام عادة إلى بني إسرائيل. ثم إن عملية القتل في ذاتها ليست عملية سهلة، إنها هي عملية مُرهقة تقتضي استنفار همم الكثيرين من عيون فرعون وقومه وجواسيسهم.

(٢) أدلة أصحاب الرأي الآخر بأن القائل هو الرجل الإسرائيلي الانفعالي.

ه - لقد أوصانا من قبل إلى أن الرجل الإسرائيلي يكاد يكون الرجل الذي لا يكتم السر.

و - امتدادًا لما يتسم به من سرعة انفعال، فإنه حينما تبين استعداد موسى عليه السلام للهجوم، ظن أن موسى يريد أن يبطش به، بدلًا من أن يبطش بالرجل القبطي.

ج- أهمّ سبب حمل أصحاب هذا الرّأي على تبنّيه هو الاعتقاد بأنّ الشّخص الوحيد الّذي يعلم عمليّة القتل للقبطيّ بالأمس هو هذا الرّجل الإسرائيليّ وحده. وها هو ذا الشّرّ يذيع ويؤوّل مرّة على لسان الرّجل الإسرائيليّ. وحينما ذاع الشّرّ عليه، فلم يعد سرّا، إذ سمعته الآذان ووعته، وأعلنته الألسنة وأذاعته.

ومهما يكن من انكشاف السّرّ قبل ذلك، فرأي هذا الفريق، هو الّذي حمله على تبنّي هذا الرّأي بأنّ القائل هو الرّجل الإسرائيليّ، رغم المنعطف الحادّ الّذي ينتقل معه الكلام حينما يتحوّل من الإشارة للإسرائيليّ، إلى الإشارة للقبطيّ.

النّظريّة اللّغويّة الجديدة ترجّح أحد الرّأيين.

من أجل تعريف النّظريّة اللّغويّة الجديدة في ترجيح أحد الرّأيين، نحن بحاجة إلى الوقوف على معنى الآيتين الكريمتين المترابطتي المعنى (1) قال تعالى: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من النّاصحين. فخرج منها خائفا يترقّب قال ربّ نجّني من القوم الظّالمين﴾ المعنى والله تعالى أعلم: وجاء رجل محبّ لموسى عليه السّلام،

---

(1) سورة القصص 20، 21

مِنْ أَقْصَى مَدِينَةِ مَنْفَ، عَاصِمَةِ فِرْعَوْنَ، وَوَصَلَ فِعْلاً إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ الْمُحِبُّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ، الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ سُورَةُ الْمُؤْمِنِ أَوْ غَافِرٍ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الثَّامِنَةِ وَالْعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهَا، وَهُمْ كَوْنُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ تَحَدَّثَ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولاً، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ رَجُلاً مُحِبّاً آخَرَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ وَآخَرُهَا (١) يَسْعَى. وَالسَّعْيُ: الْمَشْيُ السَّرِيعُ، وَهُوَ دُونَ الْعَدْوِ (٢) وَإِنَّ الرَّجُلَ يَسْعَى وَقَدْ جَاءَ مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِهِمْ (٣) فَقَدْ سَبَقَ الْقَوْمَ وَوَصَلَ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَبْلَ الْمُسْتَوْلِينَ الرَّسْمِيِّينَ الَّذِينَ قَدِمُوا لِتَنْفِيذِ الْحُكْمِ الصَّادِرِ بِقَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي جَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ فَشَلِ الْمُحَاوَلَةِ لِقَتْلِ مُوسَى: إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، وَأَبْلَغَنِي أَنَّ أَشْرَافَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَرُؤَسَاءَهُمْ يَتَآمَرُونَ بِقَتْلِكَ، وَيَتَشَاوَرُونَ، وَيَتَدَاوَلُونَ فِيكَ (٤) الْقَتْلَ. فَاخْرُجْ مِنْ مَدِينَةِ مَنْفَ عَاصِمَةِ فِرْعَوْنَ فَوْرًا،

---

(١) الجلالين

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني: "سعى" ١/٣٠٧

(٣) الجلالين وتفسير الطبري ٢٠/٣٣

(٤) تفسير الطبري ٢٠/٣٣

إنّي لك يا موسى من النّاصحين، المخلصين لك النّصح والودّ (١)

امتثل موسى عليه السّلام لنصيحة الرّجل المخلص الّذي جاءه وأخبره بصدور حكم فرعون فيه بالقتل، فعليه أن يخرج من المدينة فورًا. خرج موسى من مدينة فرعون فورًا، يترقّب وينتظر الطّلب أن يدركه فيأخذه (٢) ووجّه موسى عليه السّلام بابَ إلى الله تعالى مفتوحًا دائمًا فطرقه، ودعا الله تعالى الّذي يجيب المضطرّ إذا دعاه، وسأله أن ينجّيه من القوم الظّالمين، فرعون وملئه.

وهكذا انتبهنا أنّ جملة جاء تفيد هذا القرينين، الزّمانيّة والمكانيّة معًا، وتساعدنا هذه النّظريّة اللّغويّة الجديدة على الفهم بأنّ الحكم بقتل موسى عليه السّلام قد صدر من فرعون الظّالمة، وأنّ عمليّة قتل موسى الرّجل القبطيّ بالأمس لم تكن سرًّا يعلمه إلّا بعض أهل الّذي استنجد بموسى عليه السّلام. إنّ عمليّة القتل قد زاعمت، وعلم الجميع أنّ موسى عليه السّلام هو القاتل، وقد صدر الحكم بقتله. وبقيت عمليّة التّنفيذ. وقد علم الحكم بقتل موسى عليه السّلام الأقباط، والإسرائيليّون على حدّ سواء.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ: «نصح» ٦٣٩/٢

(٢) تفسير الطّبريّ ٣٤/٢٠

وما هو إلا الرجل القابل الذي أتى لموسى عليه السلام يخلصه له النصيحة ويطلب منه الخروج من مدينة فرعون وإلا أخذه رجاله ونفذوا فيه حكم فرعون بقتله. وما هو إلا موسى عليه السلام يأخذ النصيحة ما أخذ الجد، ويغادر المدينة منتظرا عاصمة فرعون، ويغيب عنها فترة أربعين سنة عاشرة أعوام.

وبذلك تنتصر هذه النظرية اللغوية الجديدة لترى أن القائل بأن القاتل لموسى عليه السلام: لا أريد أن نقتلنه الآية هو الرجل القبطي وليس الرجل الإسرائيلي. والله تعالى أعلم.

الخاتمة

بفضل من الله تعالى ونعمة، قمنا في الصفحات السابقة، بشأن نظرية جملتي: «جاء» و: «أتى» التي أكرمني الله تعالى بالتشافها بعد ألف وأربعمئة عام من نزول القرآن الكريم، قمنا من التمهيد بتعريف هذه النظرية اللغوية الجديدة في إعجاز القرآن الكريم، فقلنا: إن جملة: «جاء» لا تستعمل إلا دليلاً على القرب الزماني، والمكاني والنفسي، وإن جملة: «أتى» لا تستعمل إلا دليلاً على البعد الزماني، والمكاني، والنفسي. وربما اجتمعت الجملتان في آية كريمة واحدة وموضع واحد، أو في آيتين كريمتين، وربما أتت إحدى الجملتين أو مشتقاتها. وقد أومأنا إلى أن هذه النظرية اللغوية الجديدة قد نستطيع أن نخصي آياتها في القرآن الكريم إحصاءً دقيقاً. لذلك أومأنا إلى أن تعيين المعنى على وجه الدقة من الآية الكريمة، ربما يحتاج إلى الاستعانة بعدد من الآيات الكريمات، السابقة والاحقة. وبذلك فإن توظيف هذه النظرية قد يتجاوز إلى آيات كريمات أخر.

إن إمكان القيام بعملية إحصاء الآيات الكريمات بشأن هذه النظرية، حملنا على الحديث الموجز عن أعظم نظرية على الإطلاق في إعجاز القرآن الكريم، وهي نظرية النظم لإمام البلاغة الأعظم، والنحوي الأشهر، واللغوي الأبرز، عبد القاهر الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ هـ. وقد وضع الإمام عبد القاهر أسس علم البيان

في كتاب أسرار البلاغة، ووضع أسس علم المعاني في كتاب دلائل الإعجاز الذي اكتشف فيه نظرية النظم، وهي تتوخى معاني النحو، وذلك بترتيب ألفاظ معاني الكلام، ووقف تراتيب هذه المعاني في نفس الإنسان.

وقد قمنا في هذه الدراسة بضرب الأمثلة من القرآن الكريم على استعمال صاحبي الجملتين: «جاء» و«أتى» معا، أو استعمال إحدى الجملتين.

وكذلك قمنا بتوظيف هذه النظرية في موضعين اثنين في القرآن الكريم. الموضع الأول في سورة يوسف وذلك في القول في الآية الكريمة التاسعة عشرة: ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام﴾ إذ ذكرت جملة: «جاءت» على القرب بين المكاني والزماني، فتحققت عملية القرب على أتى إخوة يوسف عليه السلام ليسوا شرا محضا.

والموضع الآخر في سورة القصص وذلك في القول في الآية الكريمة العشرين: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾ إذ ذكرت جملة: «وجاء رجل» على أن حكم يخرجون بقتل موسى يعني أن عملية قتل موسى الرجل القبطي بالأمس معروفة للجميع وليس للرجل الإسرائيلي وحده، وبذلك ترجحت هذه النظرية الرأي القائل بأن قائل هذا القول: ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس﴾ هو الرجل القبطي الآخر، وليس الرجل الإسرائيلي.

والله تعالى أعلم.

فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن حجر (الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني).
فتح الباري بشرح صحيح البخاري. عبد العزيز بن عبد الله بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب. المكتبة السلفية.

ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي).
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق وتعليق الرحالي الفاروقي، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، محمد الشافعي صادق العناني. الطبعة الأولى، قطر ١٣٩٨هـ ١٩٧٧م

ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا).
مقاييس اللغة. تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون. الطبعة الثانية. ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م حلبي مصر.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير).
تفسير القرآن العظيم. "كتاب الشعب" تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد

عاشور، وعبد العزيز غنيم، بدون تاريخ.
قصص الأنبياء، ضبطه وعلق عليه محمد
عبد القادر الفاضلي. المكتبة العصرية، صيدا
بيروت طبعة عام ١٤٢١هـ ٢٠٠١م

ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) لسان
العرب، بيروت ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م

أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن
حيان) البحر المحيط. تصوير ببيروت.

باجودة (حسن محمد) تأملات في سورة الحاقة.
دار الاعتصام. القاهرة ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م
تأملات في سورة الفرقان. الطبعة
الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٣م) مكة المكرمة. التفسير
البسيط لقرآن الكريم، الجزء الثالث عشر،
وزارة الحج والأوقاف، مكة المكرمة. ١٤١٢هـ
الجزء الثامن عشر، وزارة الشئون
الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،
مكة المكرمة ١٤١٢هـ الجزء العشرون، وزارة
الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة
والإرشاد، مكة المكرمة ١٤١٣هـ الجزء
الثالث والعشرون، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف
والدعوة والإرشاد، مكة المكرمة ١٤٢٦هـ الطحاوي، إعجاز

سورة الأحزاب، رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، العدد ١٩٩ عام ١٤٢٣هـ نظرة أخرى في نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني. الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية. جامعة أم القرى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م

البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم) كتاب الصحيح. كتاب الشعب، ١٣٧٨هـ

البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد) المفردات في غريب القرآن. تحقيق محمد سيد الكيلاني. دار المعرفة. بيروت. لبنان. بدون تاريخ.

الزركلي (خير الدين) الأعلام. الطبعة الخامسة بيروت ١٩٨٠م

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر

الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) الكشاف، مصطفى
البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) الإتقان في
علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م
تفسير الجلالين، الدر المنثور في التفسير
بالمأثور، دار الفكر، بيروت، الطبعة
الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

صافي (محمود) الجدول في إعراب القرآن وصرفه،
تصنيف محمود صافي مراجعة لجنة
العلماء. طبع على نفقة إدارة إحياء
التراث الإسلامي، دولة قطر. دار الرشيد
دمشق. بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) جامع
البيان في تفسير القرآن. الطبعة الأولى.
بولاق ١٣٢٩هـ

عبد الباقي (محمد فؤاد عبد الباقي) المعجم المفهرس
لألفاظ القرآن الكريم. دار الجيل،
بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري)
الجامع لأحكام القرآن. دار الشعب،
القاهرة. بدون تاريخ.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن
عبد الله الحموي. معجم البلدان. بيروت.
١٣٧٤هـ ١٩٥٥م

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧
التمهيد، ويشتمل على:	١١
١- الكفاية إحصاء لآليات التعبير عن المتعلقات باستعمال جملتي «جاء» و«أتى» معًا أو إحداهما	١٢
٢- نظرية النظم للإمام عبد القاهر الجرجاني:	١٤
٣- إرهاصات اكتشاف نظرية «جاء» و«أتى»	١٦
٤- أطعن الأخير المستقر لمعنى الجملتين.	٢١
٥- نظرية «جاء» و«أتى»	٢٢
نماذج لاستعمالات «جاء» و«أتى»	٢٣
١- دلالة الجملتين على الزمان.	٢٤
٢- دلالة جملة «جاء» على القرب المكاني.	٢٦
٣- دلالة جملة «جاء» على القرب النفسي.	٢٨
٤- دلالة جملة «جاء» على القرب المكاني والنفسي.	٢٩
٥- دلالة جملة «يأتي» على البعد الزماني.	٣٨
٦- دلالة جملة «يأتي» على البعد المكاني.	٤١
٧- دلالة جملة «يأتي» على البعد النفسي.	٤٤
٨- دلالة جملة «يأتي» على البعدين الزماني والنفسي.	٥٠
٩- دلالة جملة «لم يأتوا» على البعدين المكاني والنفسي.	٥٣

١٠ - دلالة جملة : « يأتي » على البعد المكاني، والزماني، والنفسي. ٦٦

توظيف النظرية في خدمة موضوعين اثنين من القرآن الكريم. ٦٧

١ - توظيف النظرية يؤكد أن إخوة يوسف ليسوا عشرة أشخاص. ٦٨

ب - توظيف النظرية يرجح رأي مدرسة ٧٨
في التفسير على رأي مدرسة أخرى.

الخاتمة ٨٩

فهرست المصادر والمراجع. ٩١

فهرست الموضوعات. ٩٦

موجز العمل. ٩٨

موجز العمل

هذا العمل، كما يبدو من العنوان: نظرية لغوية جديدة في إعجاز القرآن الكريم، يتعلق بتحليل معنى "جاء" و"أتى" واستعمالاتهما، واستعمال مشتقاتهما في القرآن الكريم. إن جملة: "جاء" لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب الزماني، والمكاني، والنفسي. وإن جملة: "أتى" لا تستعمل إلا دليلاً على البعد الزماني والمكاني والنفسي. وقد بينا من هذه الدراسة أن لحظة اكتشاف هذه النظرية كان عام ١٣٩٦هـ وأن اكتشافها تم عام ١٣٩٧هـ أي بعد ألف وأربعمائة عام من نزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد تم تعريف هذه النظرية في مشروع: تأملات في كتاب الله تعالى وفي مشروع التفسير البسيط لقرآن الكريم خلال مدة ربع قرن من الزمان.

وفي هذه الدراسة أومأنا إلى استعمالات الجملتين معاً أو إحداهما، وإلى إمكانية إحصاء هذه المواضع، وبذلك تغطي هذه النظرية سبع القرآن الكريم أو سدسه، وربما أكثر من ذلك، وذلك إذا علمنا أن تبيين معنى هذه اللفظة أو تلك، يقتضي أحياناً فهم الآية الكريمة أو الآيات الكريمات السابقة على آية الشاهد أو موضع الشاهد، كما يقتضي فهم الآية الكريمة أو الآيات الكريمات اللاحقة، بحيث إن الفهم الدقيق للجملة موضع الشاهد يقتضي التعامل مع عدد كبير من الآيات الكريمات.

وقد قادت التجربة العملية إلى هذه النتيجة، وذلك حينما وظفنا هذه النظرية اللغوية الجديدة في إعجاز القرآن الكريم في موضعين اثنين، الأول حينما أثبتت هذه النظرية أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا عشرة كما هو متعارف عليه، والموضع الآخر حينما وظفنا هذه النظرية لترجيح رأي أحد الفريقين في تعيين القائل في سورة القصص من الآية الكريمة الثانية والسبعين خطاباً لرسول الله تعالى موسى عليه السلام: ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾.

وقد أوصانا في سطور إلى أعظم نظرية في إعجاز القرآن الكريم، وهي نظرية النظم للإمام عبد القاهر الجرجاني، المتوفى سنة ٤٧١ هـ أربعمائة واحد وسبعين هجرية.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذه الدراسة، ويثيب عليها، ويضع لها القبول. آمين. إنه جل وعلا أكبر مسئول وأعظم مأمول. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.